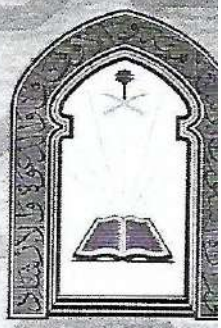

المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية
والأوقاف والدعوة والإرشاد

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد
د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

الجزء السادس والعشرون

منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم

المملكة العربيّة السّعوديّة

وزارة الشؤون الإسلامية و الأوقاف

و الدّعوة و الإرشاد

التفسير البسيط للقرآن الكريم

الجزء السّادس و العشرون

إعداد

د. حسن محمّد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

جامعة أمّ القرى بمكة المكرمة

ⓒ وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

باجودة، حسن محمد

التفسير البسيط للقرآن الكريم الجزء السادس والعشرون. / حسن محمد باجودة . - الرياض ، ١٤٢٩هـ

٣٩٥ ص ، ... سم

ردمك :٢-٦٤٣-٢٩-٩٩٦٠- ٩٧٨

١- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٥٥٩٦ / ١٤٢٩

رقم الإيداع : ٥٥٩٦ / ١٤٢٩

ردمـــك :٢-٦٤٣-٢٩-٩٩٦٠- ٩٧٨

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدّمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصّلاة و السّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله و صحبه أجمعين، و بعد:

فهذا تفسيرٌ مبسطٌ للجزء السّادس والعشرين من القرآن الكريم، يغطي سور الأحقاف، ومحمّد ﷺ ، والفتح، والحجرات، و ق ، وصدر سورة الذاريات وقد قمت بعمله على غرار تفسير الأجزاء الخمسة والعشرين السابقة. إنّ هذا الجزء السادس والعشرين هو ميدان التّفسير للمتسابقين، في الحقل الأوّل، الّذي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير، من بين الحقول الخمسة في مسابقة الملك عبد العزيز الدّوليّة التّاسعة و العشرين، لحفظ القرآن الكريم و تجويده و تفسيره، التي عقدتها وزارة الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، برئاسة معالي وزيرها الشّيخ صالح ابن عبد العزيز بن محمّد آل الشيخ في أثناء الفترة من ١٧ / ١٠/ ١٤٢٨ هـ حتى ٢٣/ ١٠ / ١٤٢٨ هـ الموافق ٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٧ م حتّى ٤/ ١١ / ٢٠٠٧ م و كأن هذا التّفسير تتويجٌ للأعمال التي تمّت في مجال التّفسير، في أثناء المسابقة. و أنتهز هذه المناسبة المباركة، كي أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، وعلى رأسها معالي الوزير، على الفرصة التّي منحتني إيّاها، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير، الذّي حَرَصت فيه، كما حرصت في سابقيه، على أمورٍ أهمها ثلاثة :

١- أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات.

٢- أن أشير إلى الدّروس التي يمكن أن تستفاد.

٣- أن أنسب الأقوال كلّها إلى مصادرها.

وفي الختام أسال الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، إنه سميـــعٌ مجيب.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

و صلّى الله و سلّم على سيّدنا محمّد و على آله و صحبه أجمعين و الحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرمة
صبيحة يوم الثّلاثاء ١٠/ ١٠/ ١٤٢٢ هـ
الموافق ٢٥ / ١٢ / ٢٠٠١ م
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

أولاً : سورة الأحقاف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ
﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟
بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ

إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ
وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ
لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ
أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟
يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ
ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ
وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ
طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ۖ إِذْ أَنذَرَ

قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا
تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ
بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟
هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ
شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ
أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ
ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ
صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ
فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ
مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾
يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن

دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ
قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ
ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ
بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

بين يدي التّفسير

(١)

" الله تعالى هو الذي أنزل القرآن الكريم، وخلق السّماوات والأرض وما بينهما، فأفردوه بالعبادة، وصدّقوا رسوله العظيم، واستمسكوا بهدي قرآنه الكريم، تدخلوا جنّات النّعيم"

الآيات (١-١٤)

تبدأ سورة الأحقاف الكريمة بالآيتين الكريمتين اللّتين ابتدأت بهما سورة الجاثية الكريمة. وبعد الحرفين المقطعين اللّذين ابتدأت بهما السورة الكريمة: ﴿حمٓ﴾ يأتي الانتصار للقرآن الكريم فوراً. إن تنزيل هذا الكتاب الكريم من الله تعالى العزيز في ملكه الحكيم في صنعه. وإن الإيماء إلى نزول القرآن الكريم من السّماء هيّأ لتحوّل الحديث إلى خلق الله تعالى السّماوات والأرض وما بينهما بالحقّ والجدّ وليس بالباطل واللّهو، وإلى أجل مسمًّى وموعدٍ محدَّد، يضطرب فيه هذا الكون بإذن الله تعالى وينفرط عقده. وبذلك يكون ثمّة لفت انتباه للكافرين إلى آي الذّكر الحكيم و إلى آيات الله تعالى المحسوسات في السّماوات والأرض. وقد أعرض كفّار مكّة ومن شاكلهم من الكافرين عن النّوعين من آيات الله تعالى البيّنات، المعنويّة والحسّيّة.

والقرآن الكريم يحذّر الكافرين من التّورّط في الشّرك عن طريق سؤالهم عن السّبب الّذي حملهم على الشّرك كي يفرّوا منه إلى التّوحيد حينما يفيقون من غفلتهم. إنّه يطلب منهم أن يعّينوا الجزء من الأرض الّذي خلقته الآلهة المزعومة وهيهات، فالله تعالى هو الذّي خلق الأرض وَحْدَه لاشريك له. أم أنّ الآلهة المزعومة شاركت بنصيبٍ في خلق السماوات، وهيهات، فالله

تعالى هو الذّي خلق السّماوات وَحْدَه لا شريك له . وبما أنه ليس ثمّة سببٌ يحمل المشركين على عبادة الآلهة المزعومة لأنّ الله سبحانه وتعالى الذي خلق كلّ شيء هو الذّي خلقها، فهل ثمّة من دليلٍ نقليّ أو عقلي يبيح للمشركين عبادة الأصنام والأوثان في هيئة كتابٍ سماويّ سابق أو بقية من علم صحيح. وبما أنّ المشركين ليس لديهم الدّليل فمعنى ذلك أنّهم إنّما يتّبعون أهواءهم في دعواهم أنّهم يعبدون الأصنام ليقّربوهم إلى الله تعالى زلفى. أنّ عليهم أن يعودوا إلى جادة الصواب بإفراد الله تعالى بالعبادة، وأنّ عليهم أن يستعملوا عقولهم وقد عطّلوها.

إنّهم حينما يستعملون عقولهم يدركون أنّه لا أحد أضلّ ممن يعبد من دون الله تعالى من لا يستجيب له إذا ناداه إلى يوم القيامة، لأنّ المدعوّ صنمٌ من حجرٍ أو خشبٍ أو مَعْدِن وما إلى ذلك، وهم عن عبادة المشركين لهم غافلون لأنهم جمادٌ وكفى. وإذا جُمع النّاس يوم القيامة للحساب و الجزاء كانوا أعداءً لعابديهم، وكانوا كافرين بعبادتهم لهم في الدّنيا لأنّهم لا علم لهم بذلك.

ويصرّ الكافرون على شركهم وتعطيل عقولهم. إنّهم إذا تُتْلَى عليهم آيات الله تعالى البيّنات قال الّذين كفروا للحقّ الّذي جاءهم على لسان المصطفى صلّى عليه وسلّم : هذا سحرٌ مبين عن طبيعته بوضوح.

أم أنّ كفّار مكّة يزعمون أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم قد افترى القرآن الكريم من ذات نفسه. قل لهم يا محمّد : إن افتريت القرآن الكريم من ذات نفسي وعاقبني الله تعالى؛ فلا تملكون لي من الله تعالى شيئاً؛ بدفع ضرٍّ أو جلب نفع، إنّه جلّ وعلا هو أعلم بما تقولون في هذا الشّأن من كلامٍ غير صحيح.

كفى بالله تعالى شهيداً بيني وبينكم، فإنه جلّ وعلا يقضى بالحقّ ويحكم بالعدل، وهو عزّ وجلّ الغفور لمن استغفره، الرّحيم بمن تاب إليه توبةً نصوحا، فاستغفروا الله تعالى وتوبوا إليه من شرككم.

وقل يا محمّد لقومك الكافرين ما كنت أوّل رسول، فقد سبقني كوكبةٌ من رسل الله تعالى الكرام، فلماذا تكذّبونني، وما أدري ما الّذي سوف يفعله الله تعالى في هذه الحياة الدّنيا بي وبكم. أنا ما أتّبع إلاّ ما يوحيه الله تعالى إليّ من قرآنٍ مجيدٍ تبيّنه السّنّة النّبويّة المطهّرة، وما أنا إلاّ نذيرٌ مبينٌ بين يدي عذابٍ شديد.

قل يا محمّد لقومك الكافرين : أخبروني إن كان هذا القرآن الكريم من عند الله تعالى الّذي أوحاه إليّ وكفرتم به، وفي المقابل شهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثل القرآن الكريم بأنه موحىً به من ربّ العالمين، و هذا الكتاب المِثْلُ هو التّوراة الّتي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السلام، فآمن هذا الشّاهد وصدّق بالتوراة الموحى بها إلى موسى عليه السلام، واتّبعه عليه السّلام، وأفرد الله تعالى بالعبادة، في الوقت الّذي كفرتم فيه بالقرآن الكريم وأنكرتم أنّه موحىً به إليه ﷺ ، واستكبرتم عن توحيد الله تعالى، ألستم أيّها الكافرون ظالمين ! بلى. إنّ الله تعالى لا يوفّق القوم الظّالمين ولا يهديهم إلى الصّراط المستقيم.

ويصّر كفّار مكّة على تكذيبهم، ويقول سادتهم و كبراؤهم على سبيل الاستعلاء على المؤمنين : لو كان القرآن خيراً ما سبقنا إليه المؤمنون الفقراء الضّعفاء. وإذ لم يهتدوا بالقرآن الكريم فإنّهم يقولون عنه : هذا كذبٌ قديم وأساطير الأوّلين.

إنّ هذا القرآن الكريم كلام ربّ العالمين، ومِنْ قبله كتاب موسى عليه السّلام إماماً لبني إسرائيل ورحمةً للمؤمنين منهم. وهذا كتابٌ مصدّقٌ لما بين يديه من الكتاب لساناً عربيّاً مبيناً، لينذر الكافرين الظّالمين، ويبشّر المؤمنين المحسنين.

ويبادر السّياق إلى تقرير ثواب المؤمنين كي يتحوّل إليهم الكافرون، إنّ الّذين قالوا ربّنا الله تعالى وَحْدَه دون سواه، ثمّ استقاموا على الطّاعة، فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون بعد الموت، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم في هذه الحياة الدّنيا من أهلٍ وولدٍ ومال. إن

أولئك هم أصحاب الجنّة وهم الخالدون فيها جزاءً بما كانوا يعملون في الحياة الدّنيا من حسناتٍ وصالحات.

(٢)

" الجنّة ثواب المؤمنين بالبعث البارّين والديهم، والنّار عقاب الكافرين بالبعث العاقّين والديهم"

الآيات (١٥- ٢٠)

إثر العناية الكبرى بقضيّة التّوحيد في القسم السّابق تأتي العناية بالوالدين والحثّ للأبناء على برّهما والإحسان إليهما. و لهذا التّحوّل من قضيّة التّوحيد إلى برّ الوالدين نظائر في القرآن الكريم. لقد وصّى عزّ وجل الإنسان بوالديه وأمره بأن يحسن إليهما. وبما أن مشقّة الأمّ أكبر من الأب وبالتّالي فإنّ البّر بها ينبغي أن يكون أكبر، لذا فقد كان ثمّة حديثٌ عن مشقّة الأمّ في أثناء الحمل، والوضع، والتّربية، والرّضاع، والفِطام. لقد فُهِم أنّ أقلّ الحمل ستّة أشهر وذلك من قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ لأنّ تمام الرّضاع بنصّ القرآن الكريم أربعةٌ وعشرون شهراً. وإن النّصّ على الثلاثين شهراً رشّح للحديث عن بلوغ الأشدّ وذلك من الثلاثين سنةً فما بعدها، وعن بلوغ منتهى الأشدّ وذلك في سنّ الأربعين.

إنّ من نسأ الله تعالى له في الأجل، عليه أن يبادر إلى الشّكر لله تعالى كفاء نعمه العظيمة عليه. إنّ عليه أن يسأل الله تعالى أن يلهمه أن يشكر نعمة الإسلام الّتي أنعم الله تعالى بها عليه وعلى والديه، وأن يوفّقه كي يعمل صالحاً برضاه عزّ وجلّ، وأن يصلح له في ذرّيّته، فهو الآن أبٌ يحتاج إلى برّ بنيه به، إنّه في هذه السّنّ قد تاب إلى الله تعالى توبةً نصوحاً، وإنّه من المسلمين لله تعالى ربّ العالمين المذعنين لمشيئته جلّ وعلا.

إن هذا الفريق من النّاس التّائب إلى الله تعالى، المنيب إليه عزّ وجلّ هو الّذي يتقبّل الله تعالى عنهم أحسن ما عملوا من أعمال صالحة، ويتجاوز عزّ وجلّ عن سيّئاتهم في جملة أصحاب الجنّة. وإنّ دخول الجنّة بفضل الله تعالى هو وعد الصّدق الّذي كانوا يوعدونه في الحياة الدّنيا.

وفي مقابل الفريق من الأبناء البارّ بوالديه، هنالك الفريق من الأبناء العاقّ لوالديه. وهذا الفريق يتجسّد في ذلك الابن الّذي قال لوالديه قذراً لكما ونتَنا، أتعدانني أن أُخرج من قبري حيّاً يوم القيامة، وقد مضت الأمم من قبلي و لم يخرج واحداً منهم من قبره. لقد تجاهل هذا العاقّ الكافر الحقيقة من كون البعث إنّما هو في الحياة الآخرة وليس في هذه الحياة الأولى، إنّ شأنه في هذا التّجاهل شأن جميع المشركين المنكرين للبعث.

إن والدي هذا الكافر يطلبان من الله تعالى الغوث والعون، وينذرانه بالعذاب الشديد والهلاك الأكيد إن هو لم يؤمن بالبعث؛ و لم يصدّق وعد الله تعالى الحقّ بقيام السّاعة. إن هذا الابن الكافر العاقّ يقول لوالديه : ليس هذا الّذي تدعوان إليه من إيمان بالبعث إلاّ أساطير الأوّلين وأكاذيبهم. إن هذا الفريق من النّاس هو الّذي وجب العذاب في حقّه في جملة أمم قد مضت قبلهم من الجنّ والإنس، إنهم كانوا خاسرين حقاً في الآخرة.

ولكلٍّ من الفريقين درجاتٌ مما عملوا. إنّ أصحاب الجنّة درجات، وإنّ أصحاب النّار دركات. والله تعالى سوف يوفّي الفريقين جزاء أعمالهم، وهم لا يظلمون بحذف حسنة أو إضافة سيئة.

ويوم يُعْرَض الّذين كفروا على نار جهنّم يقال لهم أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدّنيا و لم تبقوا شيئاً للآخرة، واستمتعتم بنعيمها، فاليوم تجزون عذاب الهون بسبب استكباركم في الأرض بغير الحقّ، وبما كنتم تفسقون وتخرجون من الصّراط المستقيم والطّريق القويم.

وليس بخافٍ أنّنا بصدد فريقين من النّاس يختلفان في الصّفات. الفريق الأوّل هو الّذي آمن وأطاع الله تعالى فكان بارّاً بوالديه مسارعاً في الخيرات. والفريق الآخر هو الّذي كفر وعصى الله تعالى فكان عاقاً بوالديه منكراً للبعث مرتكباً للسّيّئات. وكما اختلف الفريقان في الصّفات في الحياة الأولى اختلفا في المصير يوم القيامة. إنّ المؤمنين في درجات الجنّة يعلون، وإنّ الكافرين في دركات النّار يسفلون.

(٣)

" على كفّار مكّة الاعتبار بإهلاك الله تعالى عاداً الأشدّ منهم قوّة، وبإهلاك ما حولهم من القرى "

الآيات (٢١ - ٢٨)

بقصد إنذار كفّار مكّة المفتونين بقوّتهم يتحوّل السّياق إلى الحديث في إهلاك الله تعالى عاداً الأشدّ قوّةً من كفّار مكّة، وإهلاك الله تعالى ما حول كفّار مكّة من قرىً، كثمود في شمال الجزيرة العربيّة، وسبأ في جنوبها. يأمر السّياق المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يذكر للكافرين من قومه - بقصد الاعتبار - هوداً عليه الصّلاة والسّلام أخا عاد، إذ أنذر قومه بالمكان المسمّى بالأحقاف، أي كثبان الرّمل، في جنوب الجزيرة العربيّة من عُمان إلى اليمن. لقد مضت النّذر قبل هودٍ عليه الصّلاة والسّلام وبعده، وقد دعا قومه أن يعبدوا الله تعالى وحده دون سواه، وبيّن لهم أنّه عليه السّلام يخاف عليهم عذاب يوم القيامة العظيم. أخذت العزّة بالإثم عاداً فقالوا لهود عليه السّلام : أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا المتعدّدة إلى عبادة إلهك الواحد. فأتنا يا هود بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصّادقين أنك رسول ربّ العالمين، وأنّا إن لم نتبعك ينالنا العذاب. قال هودٌ عليه السّلام لقومه إنّما العلم عند الله تعالى بوقوع العذاب بكم، وأبلّغكم ما أرسلت به إليكم بإفراد الله تعالى بالعبادة، ولكنّي أراكم قوماً سفهاء وحمقى تستعجلون العذاب بدلاً من أن تسألوا الله تعالى الهداية والمغفرة والرّحمة.

فلمّا رأى القوم سحاباً عارضاً في السّماء وكانوا مجدبين قالوا هذا سحابٌ ممطرنا، بل هو ما استعجلتم به من العذاب على سبيل الاستهزاء. إنّه ريحٌ صرصرٌ عاتية فيها عذابٌ أليم. تدمّر تلك الرّيح بأمر ربّها عزّ وجلّ كلّ شيءٍ أُمِرَت بتدميره، و لم تمسّ هوداً والمؤمنين به بسوء. لقد أصبحوا لا يُرَى إلاّ مساكنهم. وكما جزى الله تعالى عاداً على سوء عملها يجزي الله تعالى القوم المجرمين مثل كفّار مكّة.

ولقد مكّن الله تعالى عاداً فيما لم يمكّن فيه كفّار مكّة، وجعل عزّ وجلّ لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، ولكنّهم لم يستفيدوا من هذه النّعم؛ فلم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم وأفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله تعالى البيّنات، وحلّ بهم العذاب الّذي كانوا يستعجلون به استهزاءً.

ولقد أهلك الله تعالى ما حول كفّار مكّة من القرى مثل عادٍ وسبأ في الجنوب، وثمود وقوم لوطٍ عليه السّلام في الشّمال، ولقد نوّع الله تعالى لأولئك الآيات البيّنات لعلّهم يرجعون إلى الحقّ والصّواب فلم يفعلوا وحاق بهم العذاب وحلّ بهم الهلاك. هلاّ نصرت أولئك المشركين تلك الآلهةُ المزعومةُ الّتي عبدوها من دون الله تعالى كي تقرّبهم إلى الله تعالى زلفى. الحقيقة إنّ تلك الآلهة قد غابت عنهم ساعة الشّدّة وخذلتهم وقت الحاجة الشّديدة لها. إنّ اتّخاذهم الأصنام آلهة هو كذبهم، وإنّ زعمهم أنّها تقرّبهم إلى الله تعالى زلفة هو افتراؤهم.

(٤)

" نفرٌ من الجنّ يستمعون القرآن الكريم ويسلمون ويدعون قومهم إلى دين الإسلام، فعلى كفّار الإنس الاعتبار، وعلى محمّدٍ صلّى الله عليه و سلّم الاصطبار "

الآيات (٢٩ - ٣٥)

استمراراً لتوبيخ كافري الإنس وتقريعهم، وفي مقدّمتهم كفّار مكّة يتحوّل الحديث إلى النّفر من الجنّ الّذين أسلموا بمجرّد استماعهم القرآن الكريم ودعوا قومهم إلى دين الإسلام. واذكر يا محمّد لقومك إذ صرفنا إليك وأرسلنا نفراً من الجنّ دون العشرة يستمعون القرآن الكريم بوعيٍ وأنت تؤمّ أصحابك في صلاة الفجر بوادي نخلة اليمانية بين مكة والطائف. فلمّا حضروا القرآن الكريم يرتّله المصطفى ﷺ ترتيلاً قال بعضهم لبعضٍ: اسكتوا كي نفهمه ونتدبّره. فلما قضيت تلاوة القرآن الكريم رجعوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً سماويّاً يتلى أنزل من بعد موسى عليه السلام، مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية، يهدي إلى الحقّ المبين، وإلى الطّريق المستقيم، وإلى دين الإسلام العظيم.

يا قومنا أجيبوا داعي الله تعالى محمّداً ﷺ وآمنوا به وصدّقوه فيما جاءكم به من ربّكم عزّ وجلّ يغفر الله تعالى لكم من ذنوبكم، و ينقذكم من عذاب يوم القيامة الأليم. ومن لا يجب داعي الله تعالى محمّداً صلّى الله عليه وسلّم فليس بمعجز الله تعالى في الأرض وليس له من دونه عزّ وجلّ نصراء. إنّ أولئك الكافرين في ضلال مبين.

أعمي كفّار مكّة، و لم يروا أنّ الله تعالى الّذي خلق السّماوات والأرض على غير مثالٍ سابق، و لم يعجز عن ذلك، بقادرٍ على أن يحيى الموتى، ومعروف أنّ خلق السّماوات والأرض

أكبر من خلق الناس. إنّ الله تعالى قديرٌ على كلّ شيء، ويستوي في حقّه عزّ وجلّ الخلق ابتداءً والخلق إعادة.

ويوم يُعْرَض الّذين كفروا على النّار يقال لهم على سبيل الاستهزاء : أليس هذا العذاب بالحقّ الّذي كنتم توعدون. قالوا بلى وربّنا إنّه لَلْعذاب الّذي كنّا نوعد. قال فذوقوا العذاب بسبب كفركم واستهزائكم.

فاصبر يا محمّد كما صبر أولو العزم من الرّسل وأنت واحدٌ منهم بل أنت إمامهم، والباقون هم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه. ولا تستعجل لهم العذاب وإن هم استعجلوه استهزاءً. كأنهم يوم يرون ما يوعدون من العذاب، لأمله وشدّته، لم يلبثوا في الحياة الدّنيا إلا ساعةً واحدةً من نهار. هذا القرآن الكريم بلاغٌ ولا يُهْلَك إلاّ القوم الفاسقون.

التّفسير

(١)

" الله تعالى هو الّذي أنزل القرآن الكريم، وخلق السّماوات والأرض وما بينهما، فأفردوه بالعبادة، وصدّقوا رسوله العظيم، واستمسكوا بهدي قرآنه الكريم، تدخلوا جنّات النعيم"

الآيات (١ - ١٤)

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

تتفق سورتا الجاثية والأحقاف في الابتداء بهاتين الآيتين الكريمتين من بين سائر سور آل حم. وما قيل عن الآيتين الكريمتين مِنْ قبْلُ يقال هنا. إنّ السّورة الكريمة تنتصر للقرآن الكريم بعد الحرفين المقطّعين على الفور، كما أنّها تنتصر للقرآن الكريم بعد ذلك على التراخي. إنّ تنزيل هذا الكتاب العزيز إنّما هو من الله تعالى العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه سبحانه.

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

إلاّ بالحقّ : إلاّ لإقامة الحقّ والعدل في الخلقّ [1] وأجل مُسَمًّى : وإلاّ بأجلٍ لكلّ ذلك معلوم عنده، يُفْنيه إذا هو بلغه، ويُعْدمه بعد أن كان موجوداً بإيجاده إيّاه [2] ما خلقنا السّماوات السّبع والأرضيين وما بينهما إلاّ بالحقّ والعدل وليس باطلاً ولهوا، وإلاّ بأجلٍ معلوم، وموعدٍ مضروب، ينفرط فيه بإذن الله تعالى عقد هذا الكون، إيذاناً بمجيّ يوم القيامة، وقيام السّاعة. إنّ على النّاس أن يشكروا لله تعالى تلك النّعم، بإفراده عزّ وجلّ بالعبادة والعمل لما بعد الموت. والعجيب في أمر الكافرين أنّهم عمّا أنذروا من شرك وارتكاب آثامٍ معرضون، وفي غيّهم سادرون.

---

[1] تفسير الطبري ٢/٢٦ .

[2] تفسير الطبري ٢/٢٦

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾

أرأيتم : أخبروني[1]

شرك : مشاركة [2]

أو أثارةٍ من علم : أو بقّيةٍ من علم [3]

إن كنتم صادقين : في دعواكم ما تدّعون لآلهتكم من أنّها تقرّبكم إلى الله [4].

قل يا محمّد لمشركي قومك الّذين يزعمون أنّ الآلهة الزّائفة الّتي يعبدونها من دون الله تعالى تقرّبهم منه عزّ وجلّ زُلْفى : أخبروني عن هذه الآلهة الّتي تعبدونها، وأروني ماذا خلقوا من الأرض، وبيّنوا لي السّبب الّذي استحقّت من أجله أن تُعْبَدَ مع الله تعالى الّذي خلق الأرض وَحْدَه دون سواه. إنّ الآلهة الزّائفة قد خلقها الله تعالى ضمن من خلق. أم أنّ المشركين يعبدون تلك الآلهة لأن لها مشاركة في خلق السّماوات. إنّ الله تعالى خلق السّماوات كما خلق الأرض وما بينهما وَحْدَه دون سواه.

إنّ المشركين بحاجةٍ إلى أن يأتوا على دعواهم إن كانوا صادقين فيها بدليلٍ نقليّ في هيئة كتاب سماويّ قبل القرآن الكريم موحىً به من الله تعالى يقول بذلك، وهيهات، أو أن يأتوا بدليلٍ عقليّ في هيئة بقيّةٍ من علمٍ صحيح يقول بالمعنى ذاته وهيهات.

---

[1] الجلالين.

[2] الجلالين.

[3] تفسير الطّبري ٣/٢٦ و انظر الجدول في إعراب القرآن و صرفه ٧/١٢.

[4] انظر تفسير الطّبري ٤/٢٦ و تفسير ابن كثير ٢٥٨/٧ و الجلالين.

إنّ دعوى المشركين لا دليل يؤيّدها ولا حجّة تعضدها، فعليهم أن يعودوا إلى جادّة الصّواب بالمبادرة إلى اعتناق دين الإسلام، واتّباع خير الأنام صلّى الله عليه وسلّم، الّذي أوحى الله تعالى إليه القرآن الكريم، خير الكلام، والمعجزة الكبرى الخالدة، الّتي تبيّنها السّنّة النّبويّة المطهّرة.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾

وإذا حُشر النّاس : وإذا جُمِع النّاس يوم القيامة لموقف الحساب[1]

إنّه لا أحد أضلّ ممّن يعبد من دون الله تعالى من لا يستجيب له إذا دعاه ولا يجيبه إذا ناداه إلى يوم القيامة، لأنّه جمادٌ وكَفَى. وهذه الأصنام من الحجارة والخشب والمعادن وما إلى ذلك غافلةٌ عن دعاء الدّاعين وعبادة العابدين لها.

وإذا جُمع النّاس يوم القيامة للحساب والجزاء كانت تلك المعبودَات الزّائفة أعداءً لعابديها، كافرةً بعبادة المشركين لها.

و هكذا خسر المشركون الأولى والآخرة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٨﴾

---

[1] تفسير الطّبري ٤/٢٦

فلا تملكون لي من الله شيئاً : فلا تغنون عنّي من الله إن عاقبني على افترائي إيّاه وتخرّصي عليه شيئاً، ولا تقدرون أن تدفعوا عنّي سوءاً إن أصابني به[1].

هو أعلم بما تفيضون فيه : ربّي أعلم من كلّ شيءٍ سواه بما تقولون بينكم في هذا القرآن[2].

وإذا تُتْلَى على مشركي مكّة آيات الكتاب العزيز البيّنات قالوا للحقّ لمّا جاءهم، وللقرآن الكريم لمّا طرقت آياته الكريمات مسامعهم، هذا سحرٌ مبين عن حقيقته لكلّ من سمعه، بسبب قدرته العجيبة على الاستيلاء على العقول، والاستحواذ على القلوب، والأسر للآذان. وهم باتّهامهم القرآن الكريم بأنّه سحر يريدون من وراء ذلك اتّهام المصطفى ﷺ بأنه ساحر : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[3].

والمشركون لا يستقرّون على رأي لأنّهم عطّلوا عقولهم، وانقادوا من آذانهم كالبهائم، فهم يردّدون قول كلّ ناعق، ويقتفون خُطا كلّ فاجر. إنّهم إذا قالوا تارةً إنّ القرآن الكريم ضربٌ من السّحر، وإنّ مَثَلَ محمّد صلّى الله عليه وسلّم مَثَلُ السّاحر، فإنهم يقولون تارة أخرى إنّ مثل محمّدٍ صلّى الله عليه سلّم مثل الكاذب وكذبوا. وهكذا.

أم يقول المشركون إنّ محمداً ﷺ قد اختلق القرآن الكريم من ذات نفسه. قل يا محمّد لهم: إن اختلقت القرآن الكريم من ذات نفسي فلا تملكون أنتم لي من الله تعالى شيئاً إن أراد أن يعذّبني، و لكنّي أنا الصّادق المصدوق، والقرآن الكريم كلام ربّ العالمين. إنّ الله سبحانه وتعالى هو أعلم بما تقولون من كذبٍ في حقّ القرآن الكريم. كفى بالله تعالى شهيداً بيني أنا

---

[1] تفسير الطّبري ٤/٢٦

[2] تفسير الطّبري ٤/٢٦

[3] سورة الكهف ٥.

الصّادق، وبينكم أيّها الكاذبون. بادروا أيّها الكافرون إلى الإيمان وعمل الصّالحات والتّوبة إلى الله تعالى الغفور الرّحيم قبل فوات الأوان.

وقد أفاض المشركون في القول غير المنصف في حقّ القرآن الكريم وحقّ محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم. وهم حينما يصفون القرآن الكريم بأيّ وصفٍ غير لائق يريدون كذلك أن يصفوا به محمّداً صلّى الله عليه وسلّم. ومن الآيات الكريمات الّتي بيّنت أنّ الحقّ جلّ وعلا يدحض كلّ افتراءات المشركين الآية الكريمة الثالثة والثّلاثون من سورة الفرقان المكّية الكريمة. قال تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

إنّ المشركين كلّما كذبوا في زعمهم بأنّ مَثَلَ محمّد صلّى الله عليه وسلّم مثل الشاعر والسّاحر والكاهن وما إلى ذلك جاء الحقّ عزّ وجلّ في القرآن الكريم بالحقّ الّذي يدمغ الباطل وبالتفسير الأحسن والمعنى الأجمل.

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾

ما كنت بدعاً من الرّسل : ما كنت أوّل رسل الله الّتي أرسلها إلى خلقه. قد كان من قبلي له رسلٌ كثيرة أرسلت إلى أممٍ قبلكم. يقال منه : هو بدعٌ في هذا الأمر وبديعٌ فيه، إذا كان فيه أوّل[1] والبديع و البِدْع : الشّيء الّذي يكون أوّلا [2] وما أدري ما يفعل بي ولا بكم: عن الحسن البصرى : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدّنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء قبلي أو أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي. ولا أدرى ما يفعل بي ولا بكم، أمّتي المكذّبة

---

[1] تفسير الطّبري ٥/٢٦

[2] لسان العرب : " بدع "

أم أمّتي المصدّقة، أم أمّتي المرميّة بالحجارة من السّماء قذفاً، أم مخسوفٌ بها خسفا[1] .

إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ : ما أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ[2]

قل يا محمّد لمشركي قومك الّذين ما أتاهم من نذيرٍ من قبلك والّذين كذّبوك : ما كنت أوّل رسولٍ أرسله الله تعالى إلى البشر، فما أكثر الرّسل قبلي وأوّلهم نوحٌ عليه السّلام وإن كنت أنا خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. وما أدرى ما الّذي سيفعله الله تعالى بي وبكم في هذه الحياة الدّنيا. هل سَأُخْرَجُ من بين ظهرانيْكمْ كما أُخْرِج غيري، أم هل سأُقْتَل كما قُتل غيري، وأنتم هل سيكتب الله تعالى لكم الهداية، أم يكتب عليكم الشّقاوة، علم كلّ ذلك عند ربي عزّ وجلّ.

إنّي في كلّ أقوالي وأفعالي ما أتّبع إلاّ ما يوحي الله تعالى به إليّ من قرآن كريم، وما أنا إلا نذيرٌ لكم بيّن الإنذار بين يدي عذاب الله تعالى الشّديد يوم القيامة، إن لم تؤمنوا وتعملوا صالحاً.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

أرأيتم : اخبروني ما حالكم[3] ؟

ومفعولا رأيتم، مقدّران : أي أرأيتم حالكم إن كان كذا ألستم ظالمين[4] ؟

---

(١) تفسير الطّبري ٦/٢٦

(٢) تفسير الطّبري ٦/٢٦ و الجلالين و الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٠/١٢

(٣) الجلالين

(٤) الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١١/١٢

إن كان من عند الله : إن كان هذا القرآن[1] وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثله : مثل القرآن التّوراة[2] روي أنّ عبد الله بن سلام قال : نزلت فيّ :

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.[3]

الآيه الكريمة تقارن بين حالي فريقٍ مشركٍ و فردٍ مؤمن. أمّا الفريق فمشركو مكّة المكّرمة الّذين كفروا بالقرآن الكريم أنّه من عند الله تعالى، وكذّبوا محمّداً ﷺ، واستكبروا عن عبادة الله تعالى، فظلموا أنفسهم، وظلموا القرآن الكريم، وظلموا خير الأنام ﷺ، وظلموا العبادة بصرفها عن الحقّ جلّ وعلا الّذي يستحقّها وَحْدَه دون سواه إلى الأصنام والأوثان.

وأمّا الفرد المؤمن فإنه شخصٌ مؤمنٌ من بنى إسرائيل قوم موسى عليه السلام، وهذا الشّخص المؤمن يصحّ أن يكون عبد الله بن سلام الصّحابيّ الّذي أسلم عند قدوم النّبيّ ﷺ. المدينة المنورة. إنّ هذا الشّخص من بني إسرائيل شهد على كتابٍ مثل القرآن الكريم موحىً به من الله تعالى وهو التّوراة بأنّه كلام ربّ العالمين. إنّ هذا الشّاهد من بني إسرائيل آمن بالتّوراة في مقابل تكذيب مشركي مكّة بالقرآن الكريم وصدّق بموسى عليه السلام في مقابل تكذيب مشركي مكة محمّداً ﷺ ، وأخلص العبادة لله تعالى وحده في مقابل استكبار مشركي قريش عن عبادة الله تعالى وحده دون سواه. إن الآية الكريمة تقول، والله تعالى أعلم : قل يا محمّد لمشركي قومك أرأيتم حالكم إن كان هذا القرآن الكريم من عند الله تعالى وشهد شاهدٌ من

---

[1] تفسير الطّبري ٦/٢٦

[2] تفسير الطّبري ٧/٢٦

[3] تفسير الطّبري ٧/٢٦ و عبد الله بن سلام، بتخفيف اللّام ، صحابيّ اسلم عند قدوم النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم المدينة، و شهد مع عمر فتح بيت المقدس، و أقام بالمدينة المنوّرة حتّى مات سنة ٤٣هـ ٦٦٣ م انظر الأعلام ٩٠/٤ وانظر فتح الباري ١٢٨/٧ حديث رقم ٣٨١٢ و صحيح مسلم ١٩٣٠/٤ حديث رقم ٢٤٨٣

بني إسرائيل على مثل القرآن الكريم فآمن أنّ التّوراة كلام ربّ العالمين، وصّدق موسى عليه السلام، و لم يستكبر عن عبادة الله تعالى وحده دون سواه ألستم يا مشركي مكّة ظالمين.؟

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

وقال الّذين كفروا للذين آمنوا : لأجل الّذين آمنوا[١] أو قالوا عن المؤمنين بالقرآن[٢] أو في حقّهم[٣] :

لو كان خيراً ما سبقونا إليه : لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالاً وعمّاراً وصهيباً وخبّاباً وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء[٤]

إفك : كذب[٥]

كتاب موسى : هو التّوراة [٦]

إماماً ورحمة : إماماً لبنيّ إسرائيل يأتمّون به و رحمةً لهم أنزلناه عليهم[٧] حالان[٨]

---

[١] الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٢/١٢

[٢] تفسير ابن كثير ٢٦٢/٧

[٣] الجلالين

[٤] تفسير ابن كثير ٢٦٢/٧ و انظر معاني القرآن للفرّاء ٥١/٣

[٥] تفسير ابن كثير ٢٦٢/٧ و الجلالين

[٦] تفسير الطّبري ١٠/٢٦

[٧] تفسير الطّبري ١٠/٢٦

[٨] الجلالين و انظر الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٣/١٢

وهذا كتابٌ مصدّق : مصدّقٌ نعتٌ للكتاب أو خبر ثان مرفوع[1]

لساناً : حال من الضّمير في مصدّق[2]

وقال الّذين كفروا من أشراف قريش ووجهائها لّلذين آمنوا بباعث الكبر والاستعلاء في أسلوب الالتفات تعبيراً عن احتقارهم للمؤمنين : لو كان القرآن خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الضّعفاء إلى نور الحقّ فإنهم سيقولون عن القرآن الكريم هذا كذبٌ قديمٌ وضربٌ من أساطير الأولين. وهذا المعنى نفسه عبّرت عنه الآية الكريمة الخامسة من سورة الفرقان المكّيّة. قال تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾

ومِنْ قَبْلِ هذا القرآن الكريم الّذي يهدى للطّريقة الّتي هي أقوم كتاب موسى عليه السلام، وهو التّوراة، إماماً يأتمّ به بنو إسرائيل، ورحمةً للمؤمنين به منهم.

وهذا، أي القرآن الكريم، كتابٌ سماويٌّ موحىً به من ربّ العالمين، مصدّق لجنس الكتاب قبله مهيمنٌ عليه، أنزله الله تعالى لساناً عربيّاًمبيناً، لينذر الّذين ظلموا حتّى انحطّوا إلى درك الشّرك، وهو الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى، وبشارةٌ للمحسنين من المؤمنين الّذين بلغوا مرتبة الإحسان.

والإحسان كما جاء في الحديث : أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك [3] .

---

[1] الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٣/١٢

[2] الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٣/١٢ و الجلالين

[3] صحيح البخاري ٢٠/١

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

إنّ الّذين قالوا ربّنا الله تعالى الّذي لا إله إلاّ هو، ثمّ استقاموا على الطّاعة، وقدّموا الدّليل العمليّ على صحّة اعتقادهم وصدق قولهم، فاستمسكوا بهدي الكتاب العزيز الّذي تبيّنه سنّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم في الحياة الدّنيا من أهلٍ وولدٍ وما إلى ذلك. إنّ الله تعالى هو وَليّ المؤمنين ويتولّى الصّالحين في الأولى والآخرة.

إنّ الّذين تلك نعوتهم هم أصحاب الجنّة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون في الحياة الأولى من الصّالحات، وبما كانوا يسارعون في الخيرات.

(٢)

"الجنّة ثواب المؤمنين بالبعث البارّين والديهم، والنّار عقاب الكافرين بالبعث العاقّين والديهم"

الآيات (١٥ - ٢٠)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

إحسانا : مفعولٌ مطلق لفعلٍ محذوفٍ[1] بالبّر بهما في حياتهما وبعد مماتهما[2]

حملته أمّه : في بطنها[3]

كرها : مشقّة[4]

ووضعته : وولدته[5]

وفصاله : وفصالها إيّاه من الرّضاع وفطمها إيّاه شرب اللّبن[6]

ثلاثون شهراً : استدلّ عليٌّ رضي الله عنه بهذه الآية مع الّتي في لقمان[7] : ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ و قولــه[8] : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ

---

(١) الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٥/١٢

(٢) تفسير الطّبري ١١/٢٦

(٣) تفسير الطّبري ١١/٢٦

(٤) تفسير الطّبري ١١/٢٦

(٥) تفسير الطّبري ١١/٢٦

(٦) تفسير الطّبري ١١/٢٦

(٧) الآية ١٤

(٨) سورة البقرة ٢٣٣

ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ على أنّ أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر، وهو استنباطٌ قويٌّ صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصّحابة رضي الله عنهم[1].

حتّى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة : الأشدّ مَبْلَغ الرّجل الحُنْكة والمعرفة[2] وتناهي قوّته واستوائه، جمع شَدّ [3] في القياس، ولم يَسْمَعْ لها الفرّاء بواحد[4] ويقول الفرّاء[5] : "وسمعت بعض المشيخة يذكر بإسنادٍ له في الأشدّ : ثلاثٌ وثلاثون، وفي الاستواء أربعون".

أوزعني : ألهمني[6]

في أصحاب الجنّة : أي هم في جملة أصحاب الجنّة[7].

وعد : مفعول مطلق لفعلٍ محذوفٍ مؤكد لمضمون الجملة السّابقة[8].

ووصّى الله تعالى الإنسان ببّر والديه وبأن يحسن إليهما إحساناً في حياتهما وبعد مماتهما. وهذه الوصيّة بالإحسان إليهما تأتي بعد الأمر بتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ولهذا التّحوّل من الأمر بعبادة الله تعالى إلى الأمر ببّر الوالدين نظائر في القرآن الكريم. وبسبب الدّور الأكبر للأمّ بالقياس إلى الأب خَصَّت الآية الكريمة الأمّ بمزيدٍ من العناية. إنّ الوالدة حملتْ جنينها في أحشائها بمشقّةٍ من ثقَلٍ ووِحامٍ وغثيان وآلام، وولدته بمشقّة من طلقٍ ووضعٍ وآلام. ومدّة حمل الوالدة جنينها حتّى فطامه وفصاله من الرّضاع وشرب اللّبن من ثديها ثلاثون شهرًا. وحينما يكون تمام الرّضاعة أربعة وعشرين شهراً، يكون أقلّ الحمل ستّة

---

[1] تفسير ابن كثير ٢٦٤/٧

[2] لسان العرب : " شدد "

[3] تفسير الطّبري ١٢/٢٦

[4] انظر لسان العرب : " شدد "

[5] معاني القرآن للفرّاء ٥٢/٣

[6] تفسير الطّبري ١٢/٢٦

[7] تفسير ابن كثير ٢٦٥/٧

[8] الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٧/١٢

أشهر، تمام الثلاثين شهراً.

حتّى إذا بلغ الولد أشدّه واستوت قوّته بعد الثّلاثين من عمره تأكّد في حقّه وجوب الإقبال الكلّيّ على الله تعالى ودعا ربّه عزّ وجلّ قائلاً : يا ربّي، ألهمني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى والديّ بكوننا على دين الإسلام، ووفّقني أن أعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لي في ذرّيّتي بأن تجعلهم هداةً مهتدين، إنّي تبت إليك وأنبت، وإنّني من المسلمين لك، الخاضعين لأوامرك، المذعنين لمشيئتك.

إنّ أولئك الّذين تلك صفاتهم هم الّذين يشملهم الله تعالى بفضله فيتقبّل عزّ وجلّ منهم أحسن ما عملوا ابتغاء وجه ربّهم الأعلى، ويتجاوز عزّ وجلّ عن سيّئاتهم في جملة أصحاب الجنّة. إنّ خلود الّذين تلك صفاتهم في جنّات النّعيم هو ما وعدهم الله تعالى إياه وعد الصّدق الّذي كان عزّ وجلّ يعدهم إيّاه في الحياة الدّنيا، عن طريق رسول الله ﷺ .

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

والّذي : الواو استئنافية. الّذي اسم موصول مبتدأ في محل رفع. وقصد به الجنس. خبره جملة : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ﴾ .[1]

أفّ : اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، والفاعل ضميرٌ مستتر تقديره أنا[2] يقول : قذراً لكما ونتنا[3]

---

[1] الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٨/١٢

[2] الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٨/١٢

[3] تفسير الطّبري ١٣/٢٦

أن أخرج : من قبري من بعد فنائي وبلائي فيه حيّاً[١] .

وقد خلت : وقد مضت[٢] .

القرون : الأمم [٣].

يستغيثان الله : يسألانه الغوث برجوعه إلى الإيمان بالله والإقرار بالبعث[٤].

ويلك : هلاكاً بمعنى هلكت[٥].

أساطير الأوّلين : أكاذيبهم وأباطيلهم[٦] جمع أسطورة نحو أُرجوحة وأراجيح وأحدوثه وأحاديث[٧] .

حقّ عليهم القول : وجب عليهم عذاب الله وحلّت بهم عقوبته وسخطه[٨].

فى أمم : أي دخلوا في زمرة أشباههم وأَضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة[٩].

والابن العاقّ والديه الّذي قال لهما : أفّ لكما، وقذراً ونَتنًا، وذلك بباعث الكره لهما والتّبرم بهما : أتعدانني أن أُخْرج بعد وفاتي من قبري حيّاً يوم القيامة وقد مضت الأمم من قبلي و لم يخرج واحدٌ منهم حيّاً، وهما يطلبان الغوث من الله تعالى ويحذّرانه الهلاك الأكيد إن استمّر في إنكاره البعث بعد الموت. إنّ هذين الوالدين يأمران ابنهما العاقّ أن يؤمن بأنّ وعد

---

[١] تفسير الطّبري ١٣/٢٦

[٢] تفسير الطّبري ١٣/٢٦

[٣] الجلالين و تفسير الطّبري ١٣/٢٦

[٤] انظر تفسير الطّبري ١٤/٢٦ و الجلالين

[٥] الجلالين

[٦] تفسير الطّبري ١٤/٢٦ و الجلالين

[٧] مفردات الرّاغب الأصفهاني في "سطر" ٣٠٦/١

[٨] تفسير الطّبري ١٤/٢٦

[٩] تفسير ابن كثير ٢٦٧/٧

الله تعالى بالبعث يوم القيامة حقٌّ فيقول الابن المنكر للبعث : ما هذا الّذي تتحدّثان عنه من البعث والحساب والجزاء إلاّ أساطير الأوّلين، وأكاذيب الأقدمين، وأباطيل الماضين، وجدتموها مسطورةً فتلقّفتموها وآمنتم بها ودعوتم إليها.

ويلاحظ أنّ هذا الابن الجنس العاقّ المنكر للبعث؛ يغالط كغيره من المشركين المنكرين للبعث، ويتجاهل أنّ العودة إلى الحياة بعد الموت، إنّما هي في الآخرة وليس في هذه الحياة الأولى.

إنّ أولئك المنكرين للبعث المتمثّلين في ذلك الابن العاقّ الجنس، قد وجب عليهم عذاب الآخرة في جملة أمم قد مضت من قبلهم من الجنّ والإنس. إنّهم كانوا خاسرين كهؤلاء بسبب اشتراك الجميع في إنكار البعث وعدم العمل لما بعد الموت.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

ولكلٍّ من المؤمنين المقرّين بالبعث البارين بوالديهم، والكافرين المنكرين للبعث العاقّين لوالديهم درجاتٌ في جنّات النّعيم في حقّ الأولين، بسبب ما كسبوا من حسنات، ودركاتٌ في نار الجحيم في حق الآخرين، بسبب ما اكتسبوا من سيّئات. وهم جميعاً لا يُظْلَمون بحذف حسنة أو إضافة سيّئة.

ويلاحظ أنّنا بصدد فريقين متقابلين في الصّفات، مؤمنين بالبعث بارّين بوالديهم، وكافرين بالبعث عاقّين لوالديهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدّنيا : يقال لهم[1] ذلك تقريعاً و توبيخاً[2].

عذاب الهون : عذاب الهوان[3].

ويوم القيامة يُعرض الذين كفروا على النار ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: لقد أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا،ونلتم فيها حظكم من المتع والنعيم، فاليوم تجزون عذاب الذل والهوان في نار الجحيم، بسبب ما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق عن عبادة الله تعالى، وتتعالون على عباده، وبسبب ما كنتم تفسقون وتأتون من الذنوب، وبسبب خروجكم عن الصراط المستقيم وسواء السّبيل.

ذُكِر أن عمر بن الخطاب كان يقول : لو شئت كنت أطيبكم طعاماً، وألينكم لباساً، ولكنّي أستبقي طيباتي. وذُكر لنا أنه لما قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله قال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير. قال خالد بن الوليد : لهم الجنة. فاغرورقت عينا عمر وقال: لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بوناً بعيداً.

وذُكِر لنا أنّ نبي الله ﷺ دخل على أهل الصفة مكاناً يجتمع فيه فقراء المسلمين، وهم يرقعون ثيابهم بالأُدُم[4] ما يجدون لها رقاعًا[5] قال : أنتم اليوم خير أو يوم يغدو أحدكم في حلّة ويروح في أخرى، ويُغدى عليه بجفنة[6] ويراح عليه بأخرى، ويستر بيته كما تستر الكعبة. قالوا: نحن يومئذ خير. قال: بل أنتم اليوم خير[7].

---

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ١٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧ / ٢٦٨ .

(٣) تفسير الطبري ٢٦ / ١٥ .

(٤) الأُدم بضمتين ، جمع الأديم، بمعنى الجلد .

(٥) الرِّقاع بكسر الرّاء جمع الرُّقعة بضمّ الرّاء، وهي ما يُرقع به الثوب.

(٦) الجفنة بفتح الجيم : القصعة.

(٧) تفسير الطبري ١٦ / ١٤ .

(٣)

" على كفار مكة الاعتبار بإهلاك الله تعالى عاداً الأشد منهم قوة، وبإهلاك ما حولهم من القرى"

الآيات (٢١- ٢٨)

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾

واذكر أخا عاد: أخو عاد هودٌ عليه السلام[١]

إذ أنذر قومه بالأحقاف: والأحقاف جمع حقف وهو من الرمل ما استطال و لم يبلغ أن يكون جبلا[٢]، والأحقاف وادٍ بين عمان وأرض مَهْرَة. عن ابن عبّاس قال ابن إسحاق: الأحقاف رمل فيما بين عمان إلى حضرموت. وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشِّحْر من أرض اليمن. وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفةٍ في المعنى [٣].

وقد خلت النّذر : وقد مضت الرّسل بإنذار أممها[٤]، من بين يديه ومن خلفه: من قبل هود ومن بعده[٥]، ألا تعبدوا إلا الله: أن مفسّرة[٦]، وكانوا فيما ذُكِر أهل أوثانٍ يعبدونها من دون الله [٧].

بقصد تسلية المصطفى صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام، تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺأن يذكر لقومه المشركين المفتونين بقوتهم هوداً عليه السلام الذي أرسله الله تعالى إلى عاد في جنوبي الجزيرة العربية. لقد أنذر هودٌ عليه السلام قومه بالأحقاف، بمعنى كثبان الرمل الممتدة بمحاذاة البحر بين عمان واليمن، وقد مضت النذر قبل هودٌ عليه الصلاة

---

(١) تفسير الطّبري ٢٦ / ١٦ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٦ / ١٦ .

(٣) معجم البلدان : " الأحقاف "

(٤) تفسير الطّبري ٢٦ / ١٦ .

(٥) تفسير الطّبري ٢٦ / ١٦ .

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٢٢ .

(٧) تفسير الطّبري ٢٦ / ١٦ .

والسلام وبعده، ونهاهم عن عبادة الأصنام، وحثهم على عبادة الله تعالى وحده دون سواه. لقد عبر هودٌ عليه السلام عن خوفه على قومه عذاب يوم القيامة العظيم إن استمروا على شركهم.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾

لتأفكنا عن آلهتنا: لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعوننا إليه، وإلى اتباعك على قولك[1] .

قالت قبيلة عاد لهودٍ عليه السلام في أسلوب الاستفهام الإنكاري: أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا المتعددة إلى عبادة الله تعالى وحده دون سواه، فأتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين أنك رسول الله تعالى وأنّا إن لم نتبعك سوف ينالنا العذاب.

ويلاحظ أن الآية الكريمة تجمع بين جملتي: "جاء" و:"أتى" وتتبين القاعدة التي تقول إن جملة "جاء" تدل في القرآن الكريم على القرب الزماني أو المكاني أو النفسي، وان جملة: "أتى" تدل على عكس ذلك تماماً، بمعنى أنها تدل على البعد.

إن هودًا عليه الصلاة والسلام قد وصل قومه فعلاً ودعاهم إلى توحيد الله تعالى، وقد جاءت جملة جاء لتدل على هذا القرب. وان القوم يستبعدون العذاب، وقد جاءت جملة "أتى" لتدل على ذلك البعد.

---

[1] تفسير الطبري ٢٦ / ١٦ .

قال هودٌ عليه السلام لقومه: إنما العلم بوقوع العذاب بكم عند الله تعالى، وأبلغكم ما أرسلت به إليكم، فليس عليّ سوى البلاغ الّذي لا أملك سواه، ولكنكم قوم سفهاء وحمقى تستعجلون العذاب بدل سؤال الله تعالى الهداية والتوفيق.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم: العارض السحاب البادي عرضه[1]، في ناحية من نواحي السماء[2]، والعرض خلاف الطول، وأصله أن يقال في الأجسام ثم يستعمل في غيرها[3]

قالوا هذا عارض ممطرنا: ذُكر أنهم حبس عنهم المطر زمانا[4]، تدمر كل شيء بأمر ربها: مما أرسلت بهلاكه لأنها لم تدمر هودا ومن كان آمن به[5]، فلما رأت عاد سحاباً عارضاً في السماء وكانت قد أجدبت أرضها وتنتظر المطر قالت: هذا سحاب عارض في السماء ممطرنا. قال لهم هودٌ عليه السلام: ليس هذا عارض سحاب بل هو عارض عذاب. إنه ما استعجلتم به من العذاب على سبيل الاستهزاء إنّه ريح شديدة ملتئمة مستمرّة فيها عذاب أليم. إنها ريح

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : " عرض " ٢ / ٤٢٩ .

(٢) تفسير الطبري ٢٦ / ١٧ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : " عرض " ٢ / ٤٢٩ .

(٤) تفسير الطبري ٢٦ / ١٧ .

(٥) تفسير الطبري ٢٦ / ١٧ .

عذاب تدمر بأمر ربها كل شيء أمرها الله تعالى بتدميره، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم، أما الكافرون ساكنوها فقد أبيدوا عن بكرة أبيهم.

وكما أهلك الله تعالى عادا وعاقبها بكفرها يعاقب الله تعالى الكافرين المجرمين فى كل زمان ومكان.

إن على كفار قريش ومن شاكلهم أن يأخذوا حذرهم ويبادروا إلى الإيمان وعمل الصالحات وإلا كان العقاب رادعًا والعذاب أليمًا.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه: ولقد مكناهم في الذي[1] لم نمكنكم فيه[2]، ولقد مكنا عاداً في الذي لم نمكنكم فيه ياكفار مكة، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم إذ لم يسمعوا دعوة الحق سماع قبول، ولا أبصارهم إذ أغمضوا أعينهم عن إبصار نور الحق فعميت بصائرهم وقلوبهم التي في صدورهم، ولا أفئدتهم التي لم يستطع نور الهدى أن يتسلل إليها، وبرد اليقين أن يستقر فيها. إنهم لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يكفرون بآيات الله تعالى البينات وحججه الواضحات، وحل بهم ما كانوا يستهزئون به من عذاب، ويستعجلونه من عقاب.

---

[1] تفسير الطبري ٢٦/ ١٨ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢/ ٢٦ والجلالين.

[2] تفسير الطبري ٢٦ / ١٨ .

إن على كفار مكة الأقل قوة من عاد أن يأخذوا حذرهم وأن يتعظوا بما حل بعادٍ قوم هود عليه السّلام من نكال.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

قربانا: متقربا بهم إلى الله[1].

ولقد أهلكنا ما حولكم يا كفار مكة من القرى؛ كعاد في جنوب الجزيرة العربية، وثمود في شمالها، وقوم لوط بأرض سدوم، وصرفنا الآيات ونوعنا الحجج لعلهم يرجعون عن الباطل إلى الحق فلم يرجعوا.

فلولا إذ حل العذاب بأهل تلك القرى؛ نصرهم الذين اتخذوهم آلهة من دون الله تعالى يتقربون بعبادتها إليه عز وجل حسب زعمهم ، بل ضلت تلك الآلهه المزعومة وغابت عنهم، وخذلتهم، وهم الأشد حاجة إليها، فلم تصرف العذاب عنهم و لم تخففه. وأنى لها أن تفعل شيئا لغيرها وهي عاجزة عن فعل شيء لنفسها. إن اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله تعالى هو كذبهم وما يفترونه من زعم بأنها تقربهم إلى الله تعالى زلفى.

إن على كفار مكة أن يتعظوا بما حلّ بعاد فيؤمنوا ويعملوا صالحاً قبل فوات الأوان.

---

[1] الجلالين